البيبليوجرافيا التكوينية

Genetical Bibliography

إطار نظري مقترح

لدراسة علاقات التأليف والنصوص

أ . د . كمال عرفات نبهان*

تمهيـــد

موضوع هذه الدراسة هو «البيبليوجرافيا التكوينية» ، والمقصود من ذلك هو طرح إطار منهجي للدراسة العلمية للعمليات التكوينية في نشأة وتأليف النصوص ، سواء كانت أصلية ، أو مُعْتَمِدةً علي نصوص سابقة . وبذلك نستطيع القول بأنها ببليوجرافيا التأليف وتكوين النصوص ، أو ببليوجرافيا تَوَالُد النصوص .

والهدف من هذا الطرح هو التوصل إلى دراسة كل ظواهر التأليف وتكوين النصوص في إطار منهج تكاملي شامل ، والتوصل إلى اكتشاف العلاقات والعمليات الداخلة في عملية التأليف ، والتي ينتج عنها تكوين النصوص . وليس في ذلك إثراء لعلم المعلومات فحسب بل هو إثراء لكل فروع المعرفة والبحث العلمي لعلاقتها الحيوية بظواهر المعلومات والتأليف .

ومن الأدوات التي تم تصميمها علي يد الباحث لتصوير علاقات النصوص والتأليف ، «نظام البيبليوجرام Bibliogram» ، أو مخطط علاقات التأليف ، ويُكمِّلُه نظام البيبليو كرونوجرام Biblio-Chronogram أو المخطط الزمني لعلاقات التأليف ، وقد قام الباحث بعرض هذا النظام التصويري لعلاقات النصوص ، في كتاب مستقل بعنوان : البيبليوجرام والكرونوجرام : نظام مقترح لتمثيل العلاقات بين النصوص .

ويرجو الباحث أن تتاح الفرصة لمناقشة الأفكار الواردة بهذه الدراسة من جانب المتخصصين والعلماء ذوي الاهتمام بظواهر المعلومات والنصوص والاتصال ، والمتخصصين في علم البيبليوجرافيا ، وأدعو الله أن يكون فيها ما يفيد . .

والله ولي التوفيق ، ، ، ،

(*) أستاذ المكتبات والمعلومات .

التكوين في النصوص والتأليف :

يشمل علم المعلومات ، في تعريفه المعاصر ، «دراسة تكوين أو تخليق المعلومات واستخدامها وتجميعها وتنظيمها وتفسيرها واختزانها (creation of Information) واسترجاعها وبثها وتحويلها في كل أشكالها[١] .

وتركيزاً على «تكوين المعلومات»[٢] ، وهو العنصر الأول في تعريف علم المعلومات ، وفي إطار رؤية الباحث لعلاقات التأليف ودورها في تكوين النصوص[٣] ، فإن من الممكن أن يُقترح مصطلح ومجال «الببليوجرافيا التكوينية»[٤] (Genetical bibliography) كإطار يستوعب دراسة التأليف ، من مدخل معلوماتي - اتصالي - ببليوجرافي .

وينحو هذا التأطير المقترح ، بمصطلح الببليوجرافيا لكي يرتبط بمدلول جديد[٥] ، هو «**التكوين**» ، حتى يشمل العلاقات أو العمليات التكوينية في تأليف **النص** ، **وعلاقات النص** بنصوص أخرى ، سواء **في مرحلة ما قبل وجود النص** ، **أو ما بعد وجوده** . والمصطلح بذلك يعني **ببليوجرافيا التأليف** ، أو ببليوجرافيا تكوين النصوص ، ابتداء من «نقطة الإرسال أو موقع التأليف[٦] Authorship ، واستمراراً في نقاط أخرى متتابعة من الإرسال ومواقع التأليف .

وفي هذا الإطار يخضع التأليف للدراسة ، من حيث كونه نشاطاً اتصاليا بمصادر المعلومات ، ولا يُدرس من مدخل سيكولوجي - إبداعي ، أو بلاغي ، أو إنشائي . . . أو غير ذلك من المداخل الأخرى لدراسة التأليف ، التي تختلف عن المدخل الببليوجرافي لدراسة مصادر التأليف ، وهو مدخل هذه الدراسة .

---

(١) The ALA glossary of Library and information Science, Chicago, ALA., 1983. p.118.

(٢) انظر نموذج الهجرسي لشبكة الذاكرة الخارجية ، عند وظيفة التكوين والتأليف ، في المرجع التالى : سعد محمد الهجرسي ، الإطار العام للمكتبات والمعلومات ، أو نظرية الذاكرة الخارجية .- القاهرة . مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ .- ص٣٨ .

(٣) ويمكن أن يعتبر تكوين النصوص هو الشكل المادي الذي يعكس بعض العمليات والعلاقات المختلفة في تكوين المعلومات .

(٤) هذا المصطلح من صياغة الباحث ولا يوجد من قبل في معاجم علوم المعلومات والمكتبات .

(٥) انظر : أبعاد مصطلح الببليوجرافيا وآفاقه ، في المرجع التالى ، (سعد محمد الهجرسي : الببليوجرافيا ، ودراستها في علوم المكتبات ، القاهرة ، جمعية المكتبات المدرسية ، ١٩٧٤ .- ص٦٩ - ٧٠ ، ٧٢ .

(٦) المرجع السابق ، ص٧١ .

البيبليوجرافيا التكوينية : علم الأنساب البيبليوجرافية :

والبيبليوجرافيا التكوينية بالنسبة للتأليف وعلاقات النصوص ، هي أشبه **بعلم الأجنَّة** ، الذي يخلص الولاء للجنين (**النص**) حتى يخرج للحياة . . ثم يمنحه الولاء مجدداً ، عندما يسهم في نقل بعض خصائصه الوراثية لأجيال تالية من جنسه ، والأجيال في مجال التأليف هي المؤلفات التالية ، التابعة أو المرتبطة أو المستخدمة للنص .

وهي في بعض جوانبها ، تمثل «**علم الأنساب البيبليوجرافية**»[١] إذا قصدنا أن تكون الأنساب في التأليف رصداً للصفات الموروثة وللتطور والتمايز المستمر بين أجيال متعددة من المؤلفات .

ومن خلال هذا الإطار ، يتاح للبيبليوجرافي ربط النص بأصوله السابقة وتوابعه اللاحقة من النصوص ، في إطار تصنيف محدد لعلاقات التأليف ، ومخطط ببليوجرافي ، يقترح الباحث أن يكون أكثر شمولاً وعمقاً ، في مجال الخدمة التي تقدمها البيبليوجرافيا للبحث العلمي[٢] .

وعندما يتم تطوير نماذج اتصالية للتأليف ، ومخططات وهياكل تشمل ما يمكن استقراؤه من علاقات التأليف ، فسوف يصبح في الإمكان تصوير شبكة العلاقات المتبادلة بين النصوص ، ومدى تكاملها وتواصلها كأبنية معرفية عبر مئات من السنين .

القياسات البيبليوجرافية (البيبليومتريقا) كأداة للبحث :

وقد يبدو هناك بعض التداخل بين المجالات المقترحة للبيبليوجرافيا التكوينية وبين مجال علم آخر هو القياسات البيبليوجرافية[٣] Bibliometrics (أو البيبليومتريقا) ، ولتوضيح العلاقة بينهما ، ينبغي تحديد المقصود بالقياسات البيبليوجرافية ، فهي تعني «استخدام الطرق الرياضية والإحصائية لدراسة استخدام الكتب والوسائل الأخرى»[٤] ، كما تعني «استخدام الطرق الإحصائية في تحليل قطاع من الإنتاج الفكري لتوضيح التطور التاريخي لمجالات موضوع معين ، وأشكال التأليف والنشر والاستخدام» .

---

(١) تنسب هذه الفكرة إلى والتر جريج W.W. Greg الذي كان يقصد أن تكون البيبليوجرافيا علما للأنساب Genealogy والعلاقات بين النصوص ، إلى جانب كونها «علمًا لإنتاج وإعادة إنتاج النصوص» . انظر : Gaskell, Philip. A new introduction to librarianship. Oxford, Oxford Univ. Press, 1972. P.1.

(٢) جدير بالذكر أن منهج الربط بين النص وتوابعه ، له جذور أصيلة في عملين ببليوجرافيين عربيين تراثيين هما : مفتاح السعادة/ لطاش كبرى زاده (ق١٠هـ) ، وكشف الظنون/ لحاجي خليفة (ق١١هـ) .

(٣) HArrod's librarians' glossary... 5th ed. p.74.

(٤) Tha ALA Glossary...op. cit. p.22.

فالقياسات الببليوجرافية ، تستخدم كأداة للدراسة الكمية لظواهر استخدام المعلومات من جانب المستفيدين ، والأشكال التي يصب فيها الباحثون نتائج بحوثهم ، ويستخدم عالم المعلومات هذه القياسات الكمية لصياغة القوانين الممكنة لهذه الظواهر[١] ، ودورها في ذلك يشبه دور الإحصاء السكاني بالنسبة لعلم السكان ، وهي تستمد أصولها من علوم الرياضيات والإحصاء ، كما تستمد تسميتها من كونها تستخدم في قياس ظواهر ببليوجرافية .

الببليوجرافيا التكوينية إطار ومنهج لدراسة علاقات النصوص :

وتعد القياسات الببليوجرافية **أداة** يمكن أن تستخدمها الببليوجرافيا التكوينية في الدراسة الكمية لبعض ظواهر التأليف ، وصياغة نتائجها صياغة رياضية ، ولكن الببليوجرافية التكوينية تمثل **إطاراً ومجالاً للدراسة** ، وهي ليست أداة ، بل إنها تستخدم ما يتاح لها من أدوات ، كما تبتكر أدواتها الخاصة ، وهي تشمل إلى جانب الداسة الكمية ، الدراسة الوصفية والكيفية لعلاقات التأليف ومصادره وأشكاله ، وللجوانب المعرفية والإنسانية والتعليمية والاجتماعية التي تؤثر في ظواهر التأليف . وهي ليست ظواهر ذات أبعاد كمية وتكرارات عددية فحسب ، بل إنها ظواهر إنسانية اجتماعية - معرفية . ومثل هذه الظواهر المركبة ، لا يكفي معها منهج واحد لدراستها ، بل يجب أن يكون المدخل إلى دراستها مدخلاً تكاملياً بين مناهج البحث والقياس من جهة ، ومجالات المعرفة التي تتصل بهذه الظواهر ، في مجالات علمية مجاورة ، تثرى دراسة التأليف ، مثل : سوسيولوجية المعرفة ، وسوسيولوجية الأدب ، وسوسيولوجية العلم[٢] ، وسوسيولوجية القراءة[٣] ، والاتصال العلمي في العصور المختلفة ، وعلم النفس الإبداعي ، والنقد الأدبي ، وتاريخ الأدب . . . .الخ . من جهة أخرى ، بالإضافة إلى إمكانيات الضبط الببليوجرافي وإثراء الخدمات الببليوجرافية ذاتها .

---

(١) انظر : نموذج هذه القوانين في (ميدوز ، جاك . آفاق الاتصال ومنافذه في العلوم والتكنولوچيا/ ترجمة حشمت محمد علي قاسم .- القاهرة ، المركز العربي للصحافة ، ١٩٧٩ .- ص٢٢١) .

(٢) من المجالات التي يقترحها الباحث لدراسات قادمة : دراسة علاقة أشكال التأليف بالظواهر الاجتماعية وظروف الرخاء والشدة وخاصة في تاريخ التأليف العربي ، وتأثير ذلك على تأليف المختصرات والمطولات والموسوعات وغيرها . . .

(٣) انظر ذلك تنظيرًا وتطبيقًا في الدراسة التالية : كمال محمد عرفات : دراسة ميدانية على قراءات الكبار بالمكتبات العامة بالقاهرة . رسالة ماجستير/ إشراف أحمد أنور عمر ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب قسم المكتبات ، ١٩٧٩ - ص١٥-٣٢ .

المنهج التكاملي في دراسة التأليف :

ويتمشى هذا المنهج التكاملي ، مع طبيعة التأليف ، وطبيعة علوم المكتبات والمعلومات ، فهي علوم تركيبية ، مثلها مثل الطب والجغرافيا التي تأخذ من كل العلوم وتعطي كل العلوم في علاقات تبادلية وحيوية .

وإذا كان من التعريفات السديدة لعلم الجغرافيا ، إنها «علم عدم فصل ما وصلته الطبيعة»[١] ، فإن من الممكن – قياساً – أن نقول عن دراسة ظواهر التأليف ، أو الببليوجرافيا التكوينية ، إنها : «علم عدم فصل ما وصلته المعرفة الإنسانية» . طالما أننا ندرس التأليف كظاهرة اتصال ، سواء في مجال التأليف الإبداعي الذي يستلهم ويتجاوز أكثر مما يوثق ويستشهد ، أو في مجال التأليف الوثائقي ، الذي يوثق علاقاته بتراكم العلم والمعرفة حتى اللحظة السابقة عليه ، أو التأليف النصي الذي يرتكز على نص محدد ، ويتناوله شرحاً أو استدراكاً أو تهذيباً . . . الخ .

فدراسة التأليف كظاهرة اتصال ، تعتبر المعرفة الإنسانية مَجَرَّة متصلة لمن يملك قدرة الاستكشاف ، وليست دويلات منفصلة لمن يؤثر الانتحاء موضوعاً ومنهجاً . وهي بذلك تتخطى الحواجز بين موضوعات المعرفة ، التي قد تنفصل تصنيفاً ، ولكنها تتصل تأليفاً ، لكي تصل إلى نظرة شمولية ، تتصل فيها أجنحة المعرفة ، نتيجة لما يلي :

أ – خصائص المعرفة والمعلومات ، ودوائرها الموجبة ، التي تتسع فتتلاقى مع دوائر أخرى .

ب – خصائص العقل البشري ، الذي يجمع بين التحليل والتركيب والإبداع .

ونتيجة لذلك ، فإنه عن طريق التأليف ، تتكامل خصائص التراكم التي يتصف بها العلم والمعرفة الإنسانية ، مع خصائص التواصل والربط والاستيعاب والتحويل ، وتلك هي محاور التأليف ومصدر خصوبته وآفاقه اللامحدودة من الإبداع .

الببليوجرافية التكوينية : الربط واكتشاف العلاقة :

وكما أن الببليوجرافيا النسقية Systematic bibliography تعد من أدوات «السيطرة»

---

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، القاهرة ، عالم الكتب .– ١٩٨٠ .– ج١ ، ص١٢ .

في مجال المعرفة ، حتى أطلق عليها «الببليوجرافيا قوة»[١] فإن الببليوجرافيا التكوينية ، هي من علوم «الربط» التي تساعد على اكتشاف العلاقة ، في عمليات التأليف . ولعل هذا المجال - وهو اكتشاف العلاقة «من أخصب مجالات الفكر الإنساني والبحث العلمي ، ويتصور الباحث أن إمكانيات ونتائج الدراسة في مجال الببليوجرافيا التكوينية للإنتاج الفكري سوف تطرح علاقات في التأليف تسهم في إثراء المجالات العلمية المجاورة ، التي سبق الإشارة إلى إمكانيات الاستفادة منها .

ويمثل العرض السابق تصوراً بذرياً لمجالات «الببليوجرافية التكوينية» من وجهة نظر الباحث ، وأملاً في أن تتراكم نتائج البحث العلمي المتواصل في هذا المجال .

(١) Wilson, P. Two Kinds of power: an essay on bibliographical control. Berkeley. Univ. of california press, 1978. p.4.